المحاضرة الثانية: الآداب القديمة

إنّ أقرب تعريف يمكن تقديمه للآداب القديمة أنّها (مجموعة من الأعمال الأدبية التي تمت كتابتها تقريبا بين القرن الخامس قبل الميلاد وبداية العصور الوسطى، وتجدر الإشارة على أنّ الأدب القديم لم يتطور بالتساوي وفي نفس الوقت في جميع أنحاء العالم، وهذا نتيجة المسافة القائمة بين المجتمعات.

ويعتبر أقدم عمل أدبي للبشرية هو ملحمة جلجامش" والتي أُنتجت تقريبا سنة 2000ق م، تليها أعمال أخرى خالدة مثل إلياذة هوميروس 1000 سنة ق م تقريبا، ويمكن تقسيم الآداب القديمة إلى قسمين جغرافيا هما:

أ/ الآداب الشرقية القديمة:

لقد عرفت المنطقة التي تظم بلاد النهرين ومصر- وغيرها من بلدان المشرق تطورا ملحوظا منذ القديم، ومن بين الأعمال الخالدة، والتي تركت بصمتها في الآداب العالمية نجد " ملحمة جلجامش"، وهي ملحمة عراقية قديمة، مجهولة المؤلف، بطلها هو "جلجامش" ملك " أروخ" وهي إحدى مدن بلاد النهرين، وقد كتبت باللغة السومارية.

قصة الملحمة تبدأ بخلق الآلهة لشخصية " أنكيدو"، وهو مخلوق أقرب إلى الحيوان منه إلى البشر- من أجل محاربة جلجامش والذي عاث فسادا في مملكته، لكن يتحول " أنكيدو" إلى مخلوق لطيف خاصة حينما احتك بأهل المملكة ليتحول فيما بعد إلى صديق

حميم للملك، فيشاركه حروبه وفي نفس الوقت يغير من طباع الملك، والذي أصبح مع الوقت محبا لشعبه ومملكته.

تشاء الأقدار أن يموت "أنكيدو"، حزن الملك " جلجامش" كثيرا ولعن الموت، لقرر الرحيل بحثا عن سبيل لحياة أبدية دائمة يفيد بها البشر. يعثر الملك على نبتة الخلود وفي طريق العودة للملكة تتم سرقة النبتة من طرف الآلهة، رافضة بذلك سمة الخلود للبشر.

خصائص ملحمة جلجامش:

تقوم البنية الفنية في ملحمة جلجامش على عدة عناصر، أهمها:

- التنوع الهائل والتشعب في المواضيع التي تناولتها وكان ذلك في أنساق متباينة، مثل الأسطورة والحكاية، والخرافة.
- البطولة: تعد البطولة البشرية من السمات الفنية الرئيسية لملحمة جلجامش، ولكن وحدة العناصر البطولية زادت من جمالية البنية الفنية؛ وذلك لزيادة المعاني والدلالات.
- تجاوز الواقع : وهذه الصفة جعلت من الأبطال رموزًا تاريخية، فكأن البطل يصبح بمثابة التاريخ الكامل، وذلك تقديرًا لبطولاته. التسلسل وهو الترتيب، فالملحمة أشبه بالسلسلة الشعرية الذاتية.
- تجاوز الصفات البشرية: العادية فالأبطال ليسوا أناسًا عاديين، بل يتمتعون بقوى جسدية، وفكرية خارقة، وبذلك تتميز الملحمة بالبعد عن الواقع.

- الطول: تميزت ملحمة جلجامش بالطول، وهذه صفة عامة لكل الأعمال الملحمية، وتقع في آلاف الأبيات، وأطلق عليها الباحثون المتخصصون في الملاحم القديمة، القصيدة شديدة الطول.

- ذات طابع ديني، إذ تتقاطع مع الكثير من القصص الديني حسب النقاد، ومن أمثلة ذلك (قصة أنكيدو) إذ خلقته الالهة من التراب، لتقوم امراة بغوايته، كما منع من العودة إلى وطنه. كما نجد تقاطعات أخرى (سرقة نبتة الخلود من طرف الحية، قصة الطوفان العظيم الشبيهة بقصة نوح عليه السلام).

تأثيراتها:

كنص أوّلي سيكون له من دون شك تأثير على النصوص اللاحقة من مثل " ملحمة هوميروس"، وكذا الشعر العربي، إذ تأثر به هذا الأخير خاصة في العصر العباسي وكذا الأموي، وحتى في العصر الحديث مثلما نجده في شعر محمود درويش.

كما يشير النقاد إلى انّ الثقافات الشعبية في العالم قد تأثرت بها بطريقة أو بأخرى، ولعل الحكايا الشعبية الجزائرية لها جذور مستمدة من البناء الفني والموضوعاتي للملحمة.

ب/ الآداب الغربية القديمة:

إنّ الحديث عن الآداب الغربية القديمة سيجرنا نحو الإرث اليوناني الكبير، ولا يذكر إسم الملحمة إلا واقترن بـ "هوميروس" صاحب الالياذة والأوديسا، ولا تختلف كثيرا كتب التاريخ الأدبي عن هذا المؤلف، وهو ما يؤكده الباحث " سليمان البستاني" والذي يعتبر

أوّل من ترجم إلياذة هوميروس إلى العربية، واهتم بالتراث اليوناني، معتمدا على المؤرخ اليوناني " هيرودوتس" والذي يذكر أنّ" الشاعر كان أعمى منذ طفولته وأنّه شبّ وبدأ نظم الشعر وجعل ينتقل بين الجزر والمدن اليونانية و الطروادية، في الأخير قرر أن ينظم الإلياذة متغنيا بأمجاد اليونان، أما عن أعماله فيختلف النقاد في حقيقة تأليفه للملحمتين، لأن أسلوب الملحمة تتجلى فيه معالم مدرسة أي تناقلتها الألسن فتضيف إليها وتحذف منها وليس أسلوب شخص واحد".

ملخص الملحمتين:

- **الإلياذة:**

هي ملحمة نظمها هوميروس متغنيا بأمجاد أسبرطة في حرب طروادة ويعود اسم الالياذة إلى مدينة " إليون" عاصمة طروادة.

تدور ملحمة الالياذة حول الحرب التي أعلنتها اسبارطة على مملكة طروادة والسبب في ذلك أن " باريس" إبن الملك فريام (ملك طروادة) قام بزيارة رسمية إلى إسبرطة أين تعرف على زوجة ملك اسبرطة " هيلانة" زوجة " منيلاوس"، فأحبته وقررت الهرب معه إلى طروادة.

طالب الاسبارطيون ارجاع ملكتهم غير أن الطرواديين رفضوا ذلك فقام أخ الملك " منيلاوس" وهو " أغامنون" بغزو طروادة، دامت الحرب عشر سنوات والتي أنهاها " أخيل" بقتل " هيكتور" .

- **الأوديسا:**

تـــروي هـــذه الملحمـــة تفاصـــيل رحـــلة أحـــد المحـــاربين الاســـبارطيين ألا وهـــو " أولـيس"« ulisic» ، وهي الـرحلة الـتي انطلقـت منـذ مغادرتـه طـروادة بعـد انتهـاء الحـرب، ليـدخل في مغـامرة بحريـة مليئـة بالأهـوال، لتحـول قـوى الشر- دون رجوعـه إلى إسـبرطة، واضـعة أمامـه هـو وأصـدقائه مجموعـة مـن العقبـات المتمـثلة في وحـوش بحريـة مخيفـة وحـوريات البحـر، وفي الجهـة المقـابلة تعـيش زوجتـه " بنيلـوب" وابنـه " تلـيماك" الأمـرين عـلى إثـر غيابـه الطويـل، إذ تلاحـق الزوجـة دعـوات للـزواج مـن طـرف بعـض التجـار الأغنيـاء قصـد الاسـتلاء عـلى ثـروات وأراضي " اولـيس"، ليعود في الأخير ويسترجع ملكه وزوجته وإبنه.

خصوصيات ملحمتي هوميروس:

- الملحمتـان ذات طـابع أسـطوري يمـزج الصرـاع والبطـولة، الحـرب والشـجاعة، الحـب والكراهية، الخيانة والغدر.
- الأحداث فيها يفتعلها رجال أبطال، وتتحكم فيها الآلهة.
- تمجـد مـلاحم هـوميروس الفـرد اليـوناني، وتحـاول ان ترفـع مـن شـأنه بتقريبـه مـن الألوهية.

ويمكـن ان نسـتخلص خلـود الملحمتـين عـبر هـذه القـرون بقـول الباحـث " سـليمان البسـتاني": **" إن هـوميروس إنّـما نقـر عـلى أوتار القلـوب فأثارهـا ونفـخ في بـوق الأرواح**

فأطارها، ومزج الحقيقة بالخيال مزجا يخيل غليك أنهما تآلفا فتحالفا، وسبر أعماق النفس في سذاجتها وتجري الفطرة في بساطتها، وهاج للعواطف والشعائر".

ومنه فإن سبب انتشارها الرئيسي- يعود بالدرجة الأولى إلى قيمتها الفنية الكبرى حيث تناقلتها لغات العالم. لتصبح ذات تأثير كبير في التكوين الحضاري والفكري لليونانيين، كما بني على أساسها التعليم خلال عشرين قرنا من التثقيف والتأديب، ولا يزال الروائيون والكتاب والمسرحيون إلى الآن يرتدّون إلى نصوصها ليستقوا منها أعمالهم.

على سبيل التحديد الاصطلاحي:

في مفهوم الملحمة:

مما تقدم يمكن لنا تحديد مفهوم عام للملحمة فهي " قصة بطولات تحكى شعرا، تحتوي على أفعال عجيبة، أي على حوادث خارقة للعادة، ويتجاور فيها الوصف مع الحوار وصور الشخصيات والخطب، وتتميز بقوة إيحائية كبيرة تتأسس على مخيلة غرائبية تتمظهر في قصيدة سردية، تسهم في خلق عالم مغاير للعالم المألوف"

لأبطال الملاحم وحوادثها أصول تاريخية، لكنها تختلط مع الأساطير والخرافات.

الخصائص العامة للملحمة:

1/ التنوع الهائل والتشعب في الموضوعات التي تعرض لها، وفي الأنساق السردية التي تتشكل منها بنيتها مثل الأسطورة والحكاية والخرافة والقصص المتعلقة بأعمال البطولة.

2/ تقوم الملحمة على الوحدة بين عناصرها كالمزج بين القوى البشرية والقوى الخارقة.

3/ الطول: إذ تتميز الملاحم بالطول، لتأتي في آلاف الأبيات.

4/ الموضوعية: شعر الملاحم شعر موضوعي لا ذاتي، غذ لا نجد أثرا لشخصية الشاعر فيها.